2

الشوارع الخضراء

وضع محمد الهضيبي مصحفه صباح يوم كئيب من أيام كانون الأول / ديسمبر، ووجد أن الحكومة المصرية قد أعلنت الحرب على جيرانه. وكان الغضب والخوف يتجمعان في داخله. فقد دأب على مقاومة سلطات الدولة على الدوام، مفرطاً أول الأمر، ثم واعظاً في الطرقات. ولكن في هذا اليوم استطاع الهضيبي أن يحس بغضب الدولة على عتبة بابه. وكانت قوات خاصة شبه عسكرية بنظارات الريبان الشمسية، والثياب البيضاء المنشَّاة، والبنادق الآلية الجاهزة قد أقبلت توطد النظام في الحي المنكود.

كان الهضيبي يسترجع في ذهنه كل السنوات التي بددها وهو مفرط، وكل شيء كان في وسع مراهق ناحل الجسد أن يضع يده عليه في حي من أحياء القاهرة القذرة المزدحمة بالسكان. وكان عملاً سهلاً يعود عليه بكثير من المنافع. وكانت الجنيهات العشرة التي يكسبها في كل يوم، وهي تعادل نحو ثلاثة دولارات ونصف، تضمن له عيشاً رغيداً. وكان أفضل ما في ذلك أن الهضيبي كان يمضي وقته مسترخياً على كرسي في مقهاه المفضل. ولقد أنفق عقداً من الزمان سعيداً بالحياة التي توفرها له المخدرات وأقداح الشاي بالنعناع المحلاة بالسكر التي يحتسيها بلا انقطاع.

وحينما ضاقت به الأحوال في السادسة والعشرين بدأ بتجارة الدجاج، وافتتح دكاناً للدواجن. وانحسرت الطاقة العصبية التي كان قد اكتسبها في الماضي ليحل محلها مزاجه السلبي الطبيعي الذي أعانه على الصبر في التعامل مع الطيور التي لا يقر لها قرار. كما ازداد وزنه وتزوج، وأطلق لحية طويلة، وعلَّم نفسه كيف يقرأ لغة القرآن. وكان حين يدفن خصلات شعره الكثيفة الجعدة بين دفتي المصحف ينسى كل شيء من حوله، ولكنه يظل محتفظاً بكامل وعيه.

أمّا اليوم، وقد أحس بأن العالم الخارجي يقتحم عليه عزلته مرة أخرى، فقد أخذ الهضيبي ولده الصغير وخرج من الباب الأمامي إلى حي إمبابة، حيث كان الألوف من القوات المصرية التي شهدت لتوها انتصار الحلفاء في حرب الخليج العربي، ينزلون إلى الطرقات الطويلة المعقدة المليئة بالأخاديد والأزقة المتربة التي تتشابك في هذه المنطقة.

كانت مساحات واسعة من إمبابة مغلقة، وطبقة من الغاز المسيل للدموع تحوم فوق الرؤوس. وكان آلاف من الجنود يشقون لأنفسهم بالعصي طريقاً وسط حشود الناس الذين أصابتهم الهستيريا وهم يتدافعون ويجرون في كل الاتجاهات التماساً للملجأ والملاذ. وكان الضباط يستخدمون النساء والأطفال دروعاً بشرية ضد الغوغاء المتدافعين في أمواج متلاطمة، مخلفين وراءهم مجموعات من الأمهات المولولات المتشحات بالأنقبة السوداء. بعد ذلك أغارت قوات الأمن على المنازل، وحطَّمت نوافذ الدكاكين، وجرَّت السكان من منازلهم، وحوَّلت الشوارع إلى بحر من الزجاج المحطم.

ومثل معظم المصريين، استيقظ سكان إمبابة في صباح 8 كانون الأول / ديسمبر 1992 على أخبار إعلان الحكومة الحرب على الجماعة الإسلامية، وهي أقوى جماعة مقاتلة إسلامية في البلاد. ولما كانت حكومة الرئيس حسني مبارك مقتنعة بأن الجماعة قد فرضت سيطرتها على الحي فقد قرّرت أن تستعيده.

كانت هذه أكبر عملية أمن مصرية في التاريخ الحديث. وأصبحت إمبابة طوال خمسة أسابيع جزيرة إرهاب معزولة تماماً عن القاهرة الكبرى. وألقي القبض على المئات من الناس الذين أطلق سراحهم فيما بعد من دون أن توجه إليهم أيّةُ تهمة. وكانت الفكرة الكامنة من وراء الاكتساح الكبير هي الظفر بمعلومات حول الجماعة السرية. كما لم يُترك شيئ للمصادفة، ولم يكن أحد يعد بريئاً. فقد سيق الرجال ذوو اللحى، وهي العلامة المسجلة للجماعة، إلى السجن؛ في عملية بحث ضخمة من أجل الجائزة الكبرى: شاب يعرف باسم الشيخ جابر، الذي تنظر إليه الحكومة على أنه زعيم فتنة الجماعة.

وقال لي الشيخ الهضيبي بعد سنتين عندما جلست أحتسي معه قدحاً من الشاي: «لقد أطلقت الحكومة كلاب الجحيم من عقالها، وكان ذلك أشبه بأحد أفلام رعاة البقر». وأضاف، وهو يشير إلى رداء قطني أصفر داكن يصل طوله إلى الأرض: «أنت ترين هذه الجلابية لقد مزقتها الشرطة إرباً، وجمعتها مرة أخرى بالخياطة لكي أستطيع أن أحتفظ بها للذكرى». وكان الشيخ جابر محمد علي، البالغ من العمر خمسة وثلاثين سنة، والذي استثار الغضب، عاملاً كهربائياً أمياً، لا يكاد يعرف خارج حدود الحي. لقد ثَوَّرَ إمبابة عندما عرض نظامه على مجتمع محلي ليس فيه من أنشطة مبرمجة سوى الوجبات اليومية ونداء المؤذن إلى الصلاة. وكان لجابر هالة كتلك التي كانت لآية الله الخميني، وكان لديه من القسوة والمكر ما كان لزعماء المافيا ـ كما حصل على تعاطف من الناس كالذي حصل عليه روبن هود. وكان الشيخ يسعى إلى فرض رؤيته لأسلوب حياة إسلامية لائقة على مجتمع محلي يكدح كدحاً مريراً من أجل معيشته ويبحث عن مكان له في مصر الحديثة. وكان لديه ثلاث زوجات يعشن معاً في بيت واحد غير أن خطأه القاتل كان لسانه المتشدق. وذلك أن نفس اللغة الفصيحة المتأنقة التي رفعت معنويات إمبابة في يوم من الأيام هي التي هوت بالحي الغارق في النفايات إلى الحضيض. ففي مقابلات صحفية مع

الصحفيين الأجانب قبل شهر من اكتساح قوات الأمن خرج جابر من الحي المنكود إلى أضواء وسائل الإعلام فجعل يفاخر باستحواذ الجماعة الإسلامية على إمبابة. وقال متباهياً، إن الجماعة قد حولت إمبابة إلى «دولة داخل دولة»، وهي دولة لا تنصاع للسلطات الرسمية العلمانية، بل تستهدي بتفسير الجماعة المتحفظ للقرآن وأحاديث الرسول.

وقال جابر في ذلك الوقت: «إن الشريعة الإسلامية تطبق في كثير من المناطق في إمبابة. ونحن نستعمل لساننا أولاً، فإذا لم يصغ الناس هددناهم، فإذا لم يرعووا استخدمنا القوة. ومما يضايق الحكومة أننا... دولة داخل دولة، ولكننا بفضل الله، لسنا مجرد دولة داخل دولة، بل أصبحنا دولة في ذاتها، ولسوف يطبق الشرع الحنيف في كل مصر بإذن الله».

ورويت حكايات كثيرة حول الطريقة التي استطاع بها جنود جابر المشاة، من الشباب الملتحين، الذين كانوا يعتمرون القلنسوات الضيقة المطرزة، فرق أمن أهلية مهمتها فرض الأخلاقيات الإسلامية. وكان أهل الحي إذا استأجروا راقصات لحفلات زفافهم، كما تقضي بذلك التقاليد الشعبية، أعلن من يسمون بالأمراء في جماعة جابر أن الرقص حرام حسب التعاليم الإسلامية، ووضعوا أمام العروسين اختياراً صريحاً: إما أن يتخلصوا من الراقصات وإما أن نفعل ذلك نحن بالنيابة عنكم. وحرَّموا تعاطي البيرة والحشيش، اللذين يشكّلان في كثير من الأحيان ذروة الاحتفال في حفلات الزفاف المحلية، واعتبروهما منافيين للأخلاق. وأحرق الأمراء، محلات الڤيديو، وصالونات الحلاقة النسائية، التي عدت من المحرمات أيضاً، وحذرت النساء من مغادرة بيوتهن دون حجاب، وهو الغطاء الإسلامي الذي يغطي الشعر والعنق والكتفين.

كما أسهم الصراع الطائفي بين المسيحيين الأقباط والمسلمين المتطرفين في إذكاء العنف في إمبابة خلال الشهور الثلاثة التي سبقت الغارة. وفي أيلول /

سبتمبر أطلق جزار مسيحي النار على مسلم وأصابه بجروح خطيرة، وكان المسلم قد طلب منه أن يذبح دجاجة وهو يتلو عبارة «الله أكبر». أثار هذا الحادث موجة من المصادمات الطائفية، فمزق المتطرفون المسلمون الصور الدينية المعلقة بالشوارع وحطموا المحلات التي يملكها الأقباط، وأحرقوا بعض الكنائس.

وعندما كان المقاتلون لا يطبقون قوانينهم الدينية والأخلاقية مباشرة على المقيمين في إمبابة، كانوا مشغولين بالدعاية للفكر الإسلامي. ففي كل ثلاثاء كانوا ينظمون اجتماعات على طول شارع البوهي، وهو طريق عام رئيسي، بين صلاتي العصر والمغرب، لإدانة مغائب الحكومة المصرية. وفي الأمسيات كانوا يصفون أجهزة التلفزيون صفوفاً على طول الشارع لعرض أشرطة الڤيديو التي تصور حادثة قتل الرئيس أنور السادات سنة 1981. وكانوا يعلقون الرايات التي تحمل توقيع الجماعة الإسلامية، لتنقل هذه الرسالة: «كان السادات أولاً.. وغداً سيكون كل من يجرؤ على معارضة الإسلام»، كما ورد في أحد الملصقات الشعبية.

وبعد أن سيطر المقاتلون على حي كامل في إمبابة، هو حي المنيرة الغربية، والذي يسكنه نحو 300,000 نسمة، ظهر دور الشيخ جابر قاضياً ومحلفاً، فقد كان يحل أشكال النزاع بين المقيمين ويتوسط بينهم وبين المقاتلين. وروى لي أحد أصدقاء جابر، والمعجبين به قصة تصور دور الشيخ المتعدّد الوجوه في المجتمع المحلي: أخبرني فوزي حميد، وهو رجل بدين ذو شعر رمادي كثيف وشاربين داكنين، ومن المتنفذين في المنيرة الغربية، يشرح لي: «كان لي صديق استأجرت أخته شقة. وسافرت إلى الخارج فترة قصيرة، وأراد صاحب المبنى أن يحتجز أثاثها وكل ممتلكاتها الموجودة في الشقة. ومضى شهران، ولم يكن هناك حل للمشكلة. ولم يكن في وسع الشرطة أن تدخل المنطقة لتسوية النزاع لأن

المقاتلين كانوا يسيطرون على الشوارع، فذهبت إلى الشيخ جابر مشتكياً. فأصغى إلينا ثم نظم اجتماعاً مع صاحب المبنى. وتمكنا في النهاية من أخذ الأثاث وكل الأشياء من الشقة».

ويظل السلطان الفعلي ونطاق الزعامة الحقيقية للشيخ جابر موضع نزاع حتى هذا اليوم. وروى لي عالم اجتماع مصري، أنفق سنوات يجري مقابلات مع زوجات جابر وأهل ثقته، أن تصوير التهديد الذي كانت تمثله هذه «الدولة ضمن الدولة» تحت قيادته إزاء الحكم العلماني كان مبالغاً فيه إلى حد بعيد. وكان جابر وأمراؤه في الواقع يسيطرون على ما يجاور المنيرة الغربية، وهي منطقة أضر بها الفقر، وحرمت من رعاية الحكومة المركزية. وكان نصف المواطنين الذين يعيشون هناك تقريباً قد هاجروا إلى هذه المنطقة من أجزاء أخرى من مصر يلتمسون الأرض الموعودة. غير أنها لم تكن فردوساً مع كون متوسط الدخل الشهري حوالى 40 جنيهاً، بل كانت تعاني من نقص المساكن وقصور مرافق الصرف الصحي وشبكات المياه. وربما كان الشيخ جابر يحمل أفكاراً تتسم بالطموح وتستهدف القيام بانقلاب. غير أن أتباعه كانوا أكثر اهتماماً بمدى قدرته على أن يقدم متطلبات الحياة الأوثق صلة بهذه الدنيا.

وظل الشيخ جابر وأمراؤه يمثلون مادة دسمة لوسائل الإعلام الغربية ويقدمون، عن غير قصد، تبريراً للمخاوف الخارجية والمحلية من أن يكون نوع فتاك جديد من الإسلام، يأخذ مجراه في العاصمة المصرية. وما كانت الأقاصيص التي يتم تناقلها على نطاق واسع لتأتي في توقيت أسوأ من التوقيت التي ظهرت فيه بالنسبة للحكومة. فقد كانت موجة شرسة من التطرف الديني تعتمل على بعد مئتي ميل إلى الجنوب في محافظة أسيوط بمصر العليا. وبدا أن الحكومة المصرية تفقد سيطرتها على الوضع في إمبابة، في قلب مدينة القاهرة. وكان الذي يتعرض للخطر هو موقع مصر

المتميز، بصفتها «الدولة العربية المعتدلة» الرئيسة. وفي عهد مبارك استفادت مصر من رغبة الغرب الملحة في إيجاد صديق عربي موالٍ له في الشرق الأوسط، وكانت المقايضة بسيطة: كانت مصر تتلقى منحاً ضخمة من المساعدات والدعم العسكري مقابل تعهد ضمني بأن تتخذ أي خطوات ضرورية لضرب قاعدة الحركة الإسلامية.

وكان مقدراً لإمبابة المستضعفة أن تدفع الثمن. ولم تكن الحقائق على الأرض ذات أهمية في الواقع، فسمعة مصر في خطر. فإذا أمكن أن يوضع الشيخ جابر ومئات من تلاميذه وراء القضبان فإن أثر الصحوة الإسلامية سوف يذوي ويختفي من التاريخ المصري.

كانت تلك هي النظرية التي يستنبطها المرء مباشرة من مذكرات جمال عبد الناصر وأنور السادات، سلفي مبارك العلمانيين. كان عبد الناصر قد شن سلسلة من عمليات التطهير في أوائل الخمسينات لقمع الإخوان المسلمين. ولما كان علمانياً عدوانياً فقد أمر بتمزيق شمل الجماعة، وأن يحكم على قادتها بعد محاولة اغتيال فاشلة، في تشرين الأول / أكتوبر سنة 1954 ـ بالسجن مدى الحياة في معسكرات الاعتقال. وعندما أثبت السجن أنه أرضية تفقيس فعالة لاستراتيجيات جديدة ضد الدولة رُئِيَ أن الموت هو الحل النهائي، فأعدم عبد الناصر سيد قطب، عراب الحركة الإسلامية المعاصرة سنة 1966 بعد أن أصدر بياناً من السجن، هو «معالم في الطريق»، أعان على رسم المسار المستقبلي للتجديد الإسلامي. وكانت كتابات قطب هجوماً مباشراً على الدولة العلمانية: إذ كانت تحدد المفهوم الإسلامي للجهاد، أو الكفاح المقدس، بأنه نضال ضد سياسات عبد الناصر الاشتراكية وكان البيان ذاته قد صيغ، جزئياً على أساس تجربة قطب في بضع سنوات من النفي الذي فرضه على نفسه في أمريكا، التي كان يدين مجتمعها بأنه منحل ولا أخلاقي. ويمثل تأثير قطب وفلسفته الأساسية كثيراً من الأسس التي يقوم عليها التحول الإسلامي في هذه الأيام.

وعندما وصل السادات إلى السلطة سنة 1970 كان في أول الأمر متسامحاً، بل شجع الانبعاث الذي كان يستلهم من سيد قطب والإخوان المسلمين. وكانت دوافعه إلى ذلك مواجهة أصحاب مراكز القوى الاشتراكيين الباقين من الحقبة الناصرية. غير أن هذه الاستراتيجية أسفرت عن نتائج مناقضة لما كان يتوقع منها، وبعد عقد من الزمان بلغ من قوة الجناح المقاتل من الإسلام السياسي أنه قد خرج عن سيطرة الدولة. وكانت هجمة السادات المضادة أضعف مما ينبغي ومتأخرة عن وقتها. وفي سنة 1981 انتزع المتطرفون الإسلاميون روح السادات، الذي سبق له أن رعاهم، في عملية اغتيال دراماتيكية مذهلة مثلت أدق لحظة في حياة المقاتلين.

وعندما نشر مبارك 14000 جندي من صفوة القوات شبه العسكرية (الأمن المركزي)، وما لا يقل عن مئة عربة مصفحة في إمبابة لم يكن ما يفعله سوى استدراك ما أغفل في الفصل السابق من كتاب الدولة، حول القضاء على التطرف الإسلامي. وفي المسرح السياسي الدوار الذي بات يمثل تاريخ مصر الحديث برّرت الدولة الغارة على إمبابة على الرغم من الإدانة الواسعة النطاق من قبل منظمات حقوق الإنسان وكثير من المصريين. وفي الصحافة التي تديرها الدولة كان اللوم يوجه إلى الشيخ جابر لتدبيره هجمات على دور السينما والنوادي الليلية والفنادق وبؤر الانحلال الأخرى. كان ضباط الأمن يصورون جابر في صورة مجرم حقير ودجال أفّاك. وقال أحد ضباط الأمن: «لقد كان جابر في مطلع حياته شقياً يعمل في محطة للحافلات في منطقة البشتيل في إمبابة، وكان يفرض «الإتاوات» على مالكي السيارات، وإذا تجرَّأ أي منهم على الاعتراض تعرَّض للضرب والإهانة. وفجأة أصبح شيخاً ورجل دين وواعظاً إسلامياً، مستغلاً فقر الناس وجهلهم»[1].

دامت عملية مطاردة الشيخ جابر أربعة أيام، وكانت تعكس تصميم

قوات الأمن على أن تثبت أنها أصلب عوداً من المقاتلين. وكان جابر في زيارة لفاتن عندما بدأت غارة الفجر، وأحس بأنه وقع في الشرك داخل شقتها الصغيرة، وساورته الشكوك بأن تنكره بالحجاب قد انكشفت لقوات الأمن، وأنه لم يعد في وسعه أن يخدع قوات الأمن بارتداء العباءة السوداء الطويلة مرة أخرى. وكان كل مقيم يعيش ضمن دائرة نصف قطرها ميل واحد من شقة فاتن قد أصبح من الناحية الفعلية رهن الاعتقال المنزلي. وكان يجري البحث في كل شقة، وتقلب رأساً على عقب. وقال واحد من جيران فاتن وهو يستعيد ذكرياته: «لم يكن يسمح لنا أن نخرج من بيوتنا على مدى أيام، وكنت أحمد الله إذ كان في بيتي كيس كبير من العدس، فقد ظللنا نأكل العدس إفطاراً وغذاءً وعشاءً إلى أن قبض على الشيخ جابر». وقالت تقارير الصحافة المصرية إن الجوع هو الذي حمل جابراً في النهاية على الكشف عن نفسه. ورصدت قوات الأمن صبية صغاراً يفرون من شقة بالقرب من منزل فاتن، وهم يجرون بصورة دورية إلى أقرب بقالية، وافترضت أن من كان يصدر الأمر شخص له أهميته، فما كان من والدين في المنطقة المجاورة المحاصرة يمكن أن يجازفا بإرسال أطفالهما إلى الخارج لمواجهة قوة نيران الجيش.

على أن المعاملة الفظة للمواطنين العاديين الأبرياء لم تنته باعتقال جابر. وأصدرت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان تقريراً في آذار / مارس 1993 يتضمن اتهاماً بأن عنف الدولة حل محل عنف المقاتلين في إمبابة. وكانت الشرطة تقتحم منازل المشتبه بهم وتقوم بتفتيشها. واعتقل العشرات من المقيمين في إمبابة من الشوارع لمجرد أن لحاهم والثوب الإسلامي كانا يبعثان على الريبة. وألقي القبض على زوجات وأمهات وأخوات المقاتلين المطلوبين، واحتجزوا مدداً كانت تصل إلى شهر كامل في معظم الأحيان. ولقد شكون من تعرضهن للتعذيب في مخفر شرطة إمبابة، حيث أمرن بأن يتجردن عاريات قبل

أن يدلين باعترافات عن جرائم لم يقترفنها أبداً، وضرب الأطفال بين الثامنة والخامسة عشرة من قبل قوات الأمن بهدف انتزاع المعلومات منهم بالقسر حول ذويهم من المطلوبين، كما أفادت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان.

وكان الإفراط في القتل والوحشية في المعاملة، هما على وجه الدقة الانطباعان اللذان أرادت السلطات أن تخلفهما وراءها. وادعى الرئيس مبارك أن قوات الأمن كانت على صواب عندما تباهت أنها اعتقلت 90٪ من المقاتلين في إمبابة، وقال وزير الداخلية عبد الحليم موسى لمجلس الشورى المصري، وهو هيئة تشريعية: «نحن نفضل أن نتهم بالخشونة والفظاظة على أن نتهم بالإهمال والتقصير في القيام بما ينبغي القيام به في مواجهة الأخطار التي تهدد بلادنا»[2].

وعندما التقيت بالشيخ الهضيبي أول مرة في شباط / فبراير 1995 كان من الواضح أن التاريخ قد خذل الحكومة المصرية هذه المرة. وذلك أن دعائم السلطة المتهاوية، من فرق إعدام، ومشانق، قد فقدت فعاليتها ضد التهديد الإسلامي. وكان تحول غير متوقع في الكفاح يتشكل في السر دون أن يلاحظه أحد. كان انتباه البلاد والقوى العسكرية التي نشأت في جانب منها بفعل المخاوف السائدة بين رعاة مصر الغربيين، لا يزالان مركّزين على المقاتلين في الجنوب. وفي هذه الأثناء كان الناس العاديون الذين لا يمتون بصلة إلى عنف الجماعة الإسلامية في قبضة أناس بسطاء من أهل التقوى الذين وجدوا أن المسجد والشيخ يحلان محل الدولة ويمثلان معلماً إرشادياً لهم في الحياة.

وما من مكان كان فيه هذا التحول الدراماتيكي أكثر وضوحاً أكثر مما كان في شوارع إمبابة المزدحمة. وفي الواقع كان القمع الدموي الثقيل سنة 1992 قد وضع نهاية للخطب النارية ضد النظام التي كانت فيما مضى تدوي من مكبرات الصوت من مساجد إمبابة. أمّا الأمراء الذين أعلنوا أنفسهم

مرشدين أخلاقيين في «الدولة ضمن دولة» فكانوا إما في السجن مع الشيخ جابر وإمّا في مخبأ سري. وكان كل واحد منهم تقريباً لديه قصة يرويها عن التعذيب والاعتقال والإيذاء الجسدي على أيدي شرطة الأمن خلال أيام الثورة في ذلك الشهر، شهر كانون الأول / يناير، وكان مجرد ذكر اسم جابر كافياً لبعث الرعدة في الناس، وكان الشيخ ذو الفم الكبير قد أخذ بطريقة ما على أتباعه عهداً بالإخلاد إلى الهدوء من زنزانة سجنه في القاهرة. وبعد شهرين من الغارة لاحظ حتى نقاد جابر، متهكمين، أن «جحيم الجماعة كان خيراً من جنة الشرطة».

كان ينظر إلى الأجانب نظرة الاشتباه إذ يفترض أنهم يعملون لصالح المخابرات. غير أنني علمت عن طريق الشيخ الهضيبي أن إمبابة خرجت من محنتها وإيمانها سليم لا تشوبه شائبة. ففي هذه الشوارع الخضراء لا يزال الاعتقاد الشائع أن «الإسلام هو الحل». والمشايخ الشعبيون يمارسون السلطة الآن على الرغم من السلطات القمعية للدولة. ولم يكن عمل قادة الجماعة الإسلامية سنة 1992 مجرَّد ردٍّ متبجح. فقد أصبحت إمبابة آنذاك دولة إسلامية يحدّد فيها الدين كل شأن من شؤون الحياة. لقد كانت دولة التراحم أكثر من كونها «دولة داخل دولة». وكان هذا التحول يعبر عن الصحوة الدينية التي تعتمل تحت السطح وتعيد تشكيل وجه مصر بكل تفاصيله. على أن إصرار الإسلام على عدم الفصل بين الرب وقيصر يصدم الغربيين ويثير فزعهم، ولو لم يكن ينطوي على تهديد مباشر. ومنذ الثورة الإيرانية سنة 1979 أصبح الإسلام يثير في أذهان الغرب أفكاراً ثابتة عن التخلف والبربرية. وكثير من الخبراء يفسرون الانبعاث الإسلامي على أنه تحول إلى الدين للالتجاء إليه هرباً من آلام الحياة التي يفتك بها الفقر. ولكن اسأل أي مصري وسوف يقول إن السنوات التي تخبطت بها البلاد في العلمانية كانت هي الاستثناء لا القاعدة لقد كانت طبيعة الإسلام المتكاملة، بمذاهبها التي تحيط بكل جوانب حياة الإنسان، توجه

المسلمين منذ الفتوحات العربية في القرن السابع. ولذلك فمن الطبيعي بالنسبة إلى المصريين أن يعتمدوا على الدين باعتباره نبراسهم الوحيد.

وغالباً ما تقارن الصحوة الدينية التي شهدتها إمبابة بالحركة الإسلامية في الجزائر. إلاَّ أن القوة الحقيقية لهذه الصحوة تكمن في ما تحدثه من ثورة هادئة في المنازل والشوارع الخلفية، . . ثورة لا يمكن أن يفرضها متطرفون، ولا يمكن أن تخمدها جحافل الشرطة المسلحة بالبنادق والمسدسات. وعلى الرغم من أن محاربي الجماعة ما زالوا يحتلون العناوين الرئيسية في الصحف بأنباء الاعتقالات الجماعية وسياسة إطلاق النار بهدف القتل، وهي السياسة التي لا تذكر في التقارير. ففي الغارات التي كانت تحدث بصورة روتينية كانت مواجهات الشرطة مع المقاتلين المشتبه بهم كثيراً ما تنتهي بمقتل المقاتلين، وقالت شهادات الشهود وجماعات حقوق الإنسان على مدى السنين إن الهدف من أعمال الشرطة هذه هو قتل المشتبه بهم، بإطلاق النار، لا القبض عليهم. وشرطة الأمن في مصر العليا مشهورة بتشتيت شمل مئات المقيمين في قرية نائية للقبض على حوالي ستة من المقاتلين، كما أن المتعاونين الذين تعاطفوا ذات مرة مع المتطرفين ولكنهم تحولوا عنهم منحوا الدولة دعماً إضافياً. والمقاتلون قلما يتمتعون بمساندة شعبية ففي أذهان معظم المصريين فكرة مؤداها أن التطرف عاد على الإسلام باسم سيِّىء.

لقد حدث التحول الديني للمجتمع المصري من خلال الباب الخلفي. فالمؤسسات الرئيسية بما فيها المدارس والجامعات والنقابات المهنية هي الآن في أيدي الإسلاميين المعتدلين، وبعض هؤلاء لا يزالون أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين التي نبذت العنف في الثمانينات. وفي المناطق المجاورة والأحياء المنتشرة في أنحاء البلاد ويتخذ المشايخ الشعبيون، متحرّرين من سيطرة الدولة، قرارات بصدد مسائل تتراوح بين الطلاق وملكية الأرض، ودور المرأة في المجتمع.

وعندما كنت أبحث عن مفتاح لغز الانبعاث الديني أو الصحوة الإسلامية في مصر، سرعان ما وجدت أن كل الطرق كانت تؤدي بطريقة أو بأخرى إلى إمبابة، التي اتخذت اسمها من شيخ مشهور من القرن التاسع عشر. وعندما سلكت طريقي النظامي إلى إمبابة قادمة من العالم الخارجي، عدت إلى متابعة آثار الهجرات الكبرى إلى هذه المنطقة على مدى السنوات السبعين الماضية. كان فلاحون يؤمنون بالخرافات من مصر العليا يلجؤون إلى مساكن المنطقة البسيطة والأراضي الزراعية التي كانت واسعة فيما مضى. وقد عاد العمال المصريون من دول الخليج العربي بمزيد من إلتزام الإسلام. وحتى الهزيمة في حرب سنة 1967 مع إسرائيل ساهمت في تشكيل ملامح إمبابة. فقد رأى فيها الكثيرون تحذيراً من الله مؤداه أن الناس قد أفرطوا في الابتعاد عن الإسلام. وكان معظم القادمين الجدد إلى إمبابة فلاحين مسلمين من الجنوب، حيث كان تنافسهم مع المسيحيين الأقباط، الذين يشكلون أقلية، يغذي التطرف الإسلامي. وكان قادة العمل العسكري الإسلاميون في المدن التي تمتد من المنيا إلى سوهاج وأسيوط يقودون موجة القتال الحديثة ضد الدولة. ولقد هاجر إلى المنطقة أقوام كثيرون من الجنوب، في الحقيقة، حتى لقد سميت مناطق إمبابة باسم المشايخ المعروفين من مصر العليا: فعزبة الشيخ عبد النعيم واحدة من تلك الجوار، بل إنها عملياً عبارة عن قرية بأسرها انتقلت إلى هنا في العشرينات على يد نازحين كانوا يبحثون عن عمل وعن ظروف حياة أفضل. والحالة النموذجية هي أنه حين يقدم واحد من القرويين على الهجرة يتبعه الآخرون. وتفيد إحصائيات الحكومة أنه لم يكن يعيش في إمبابة سنة 1947 سوى 5923 نسمة. وبحلول سنة 1960 كان السكان قد وصلوا إلى أكثر من ضعفيهم، أي أصبحوا 13584. والآن، وبعد أربعة عقود من الزمان، وصل عدد الناس هناك إلى مليون تقريباً.

ولقد تكرر هذا النمط التاريخي من أنماط الهجرة كثيراً في السنوات

الأخيرة، وسبب ذلك الكثير من العنت للدولة. فمنذ أواخر الثمانينات، عندما انفجرت حقبة جديدة من المواجهة، وجد أولئك الفارون من قوات الأمن في الصعيد ملاذاً عند ذوي قرباهم في إمبابة. وثمة مجموعتان من داخل منظمة الجهاد غادرتا أسيوط إلى القاهرة سنة 1980، واستقرتا في إمبابة وعين شمس، وهي حي آخر في قلب العاصمة. وأدت هذه الهجرة إلى نشوء مثلث استراتيجي وفَّر للمقاتلين قاعدتين في القاهرة ينفذون منهما عملياتهم، وأتاح لهم ملاذاً في أسيوط، حيث كان قادتهم يدبرون هجماتهم، كما كان المقاتلون الميدانيون يلجؤون إليها فراراً من الاعتقال[3].

وتعد إمبابة الحديثة، التي يفصلها عن قلب القاهرة الشريط العظيم الذي يرسمه النيل، عالماً مصغراً يمثل مصر ومشكلاتها المزمنة. وعلى الرغم من النمو السكاني الضخم تظل في جوهرها قرية تخترقها طرق قذرة وأزقة لا يزيد عرضها عن ياردتين. وتعلو رؤوس الناس طبقة كثيفة من السخام الناجم عن حركة المرور الخانقة. وفي معظم الأيام، عندما يختلط الهواء الأسود بالدخان الناجم عن الاحتراق البطيء في أكوام النفايات المتناثرة عبر الدروب، توحي إمبابة بلوحة جصية متآكلة من لوحات جحيم دانتي. ومن الأمور الرمزية في تحول المنطقة، هي أن أحد المساجد الرئيسية في إمبابة قد أقيم في موقع نادي الكيت كات، الذي كان المشرب المفضل لإرواء غليل الملك فاروق، آخر ملوك مصر.

وعلى طول الطرقات الرئيسية ينهال الناس على حميرهم بالضرب لكي تماشي سرعتهم سرعة السيارات المعطوبة. أما الأطفال الذين يعلو وجوههم التراب فيتراكضون حفاة في الأزقة القذرة لكي يتفادوا السيارات المنهكة. وحين لا يجرون يجلسون على جوانب الطرق الموحلة القذرة التي تزينها رقعات من روث الجمال الجاف، ويلعبون بعلب الصفيح وقوارير البلاستيك المأخوذة من أكوام النفايات. وفي مناسبات نادرة يندفعون بسرعة فوق النفايات، وهم

يسحبون طائرات ورقية بيضاً مصنوعة من الجرائد القديمة وشريط من أشرطة الكاسيت بدلاً من الخيط الباهظ الثمن.

أما منازل البعض منهم فكانت عبارة عن زرائب من اللبن المصنوع من الطين. وهي في العادة مطلية من الداخل بلون أخضر أو برتقالي يصدم الأعصاب. أما بالنسبة لمن هم أقل حظاً فيكون المنزل خيمة قذرة متهالكة من من الخيش. وليس هناك هواتف، ولا كهرباء، ولا دورات مياه، ولا مياه جارية في كثير من المنازل. وعلى صوت جرس تجري النساء والفتيات خارجات يحملن أوعية من الصفيح للحصول على الماء من عربات الصهاريج الجوالة.

وتعد المناظر، والروائح، والأصوات في إمبابة شيئاً أنموذجياً في أي قرية شرقية بدائية: جرس الماء، وحوافر الخيل التي تضرب إسفلت الشارع، واللّغط البشري المستمر في الشوارع، حيث يكون كل شق في جدار قد تحول إلى سوق للخضار أو اللحم، والشيوخ يدخنون النرجيلة في المقاهي المتسخة، والنساء في الثياب السود.

وكما هو الحال في كل ركن من أركان مصر تقريباً، لم تفلح الدولة في تأمين الخدمات الاجتماعية، والبنية التحتية والتعليم، التي تكفي لمواكبة النمو السكاني. تفيد دراسة حديثة أجراها مركز القاهرة للدراسات الجنائية والاجتماعية أن الأميين ومن لم يبلغوا مستوى التعليم المتوسط في إمبابة يشكلون نسبة مروعة تصل إلى 85٪. وبسبب ازدحام المدارس يحضر الأطفال الفصول الدراسية في ثلاث نوبات، تبدأ الأخيرة منها في ساعة متأخرة من النهار وتنتهي في ساعة مبكرة من المساء. وهناك نسبة سبعين بالمائة من الأطفال الذين يعيشون في المنيرة الغربية لم يدخلوا المدرسة أبداً، كما يفيد تقرير صدر سنة 1995 عن مركز الأهرام الاستراتيجي الذي ترعاه الدولة. وكانت العلامة الوحيدة الباعثة للأمل في أيام الشيخ جابر وأمرائه هي الإيقاع اليومي للحفارات والمجارف التي تضرب أرض الشارع. ففي أواخر الثمانينات لم يكن هناك، من

الناحية الفعلية، مياه جارية في أجزاء من إمبابة. وكان السكان يركبون أنابيب من صنع منزلي لتصريف مياه المجاري من منازلهم إلى حفرة مستطيلة على طول الشارع. وكان الصراع بين البقاء والفناء يبدو جليّاً. وكانت الأرغفة المخبوزة الطازجة تعرض للبيع على ألواح عريضة من الخشب توضع على حوافِ الحفرة المملوءة بالمخلفات الآدمية. ولكن في مستهل سنة 1989 استثمرت الوكالة الامريكية للتنمية الدولية، وهي صندوق أمريكي للتنمية، في إمبابة أكثر ممّا استثمرت في أي مكان في العالم، وتم إنشاء نظام جديد، وفرّ الماء الجاري في الجانب الأكبر من المنازل.

وكان حسين الغزالي، محافظ الجيزة العجوز، يباهي بمشروع المياه الذي كان يهدف إلى تحويل إمبابة من حي قذر إلى حاضرة مزدهرة، وكان يقول موجهاً: «اذهبوا إلى هناك وشاهدوا بأنفسكم، وسترون مقدار سعادة الناس».

كانت الدولة مزهوة إلى حد بعيد بالتحسينات التي أدخلتها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية حتى لقد كانت شخصيات لامعة، مثل مبعوثي الأمم المتحدة ورجال الكونغرس الأمريكي كثيراً ما تستعرض في شوارع إمبابة للاطلاع على هذه التحسينات. وكان الأمير تشارلز الإنكليزي آخر زائر أتيح له أن يقوم بجولة ملكية فيها. وقال الغزالي، وهو لا يستطيع أن يخفي شعوره بالمفاجأة: «لقد جاء إدي مورفي إلى هنا، وأكل من خبز الشعب هنا وتبين له أنه جيد».

وبينما كان الغزالي، المحافظ، يتغنى بالإنجازات، كان سكان إمبابة يلعنون عجز السلطات عن توفير المياه الجارية، والمجاري، والخدمات الأساسية الأخرى. وهم يعتقدون أن الحل لا يكمن في العالم العلماني، عالم البيروقراطيين، واللجان والمحافظين، بل في دينهم فحسب. وقد جاء في مسح أجراه مركز الدراسات الجنائية والاجتماعية أن 90٪ من الشباب الذين أجريت

معهم مقابلة، قالوا إن انتشار الإسلام سيحل مشكلاتهم بدءاً من مشكلة طفح مياه المجاري في الشوارع وانتهاءً بأزمة الإسكان.

ويقوم مئات المساجد على طول أزقة إمبابة، وكثير منها مساجد تخضع للتوجيه الحكومي، تحت إشراف وزارة الأوقاف. وهذه خطوة من الخطوات الكثيرة التي قامت بها الدولة للسيطرة على المشايخ والمنابر. ومنذ أيام عبد الناصر حاولت الدولة أن تتحكم في كل المساجد. وفي سنة 1979 كشف الشيخ عبد المنعم النمر، وزير الأوقاف في تلك الأيام، عن أرقام تظهر أن العدد الإجمالي للمساجد في مصر وصل إلى 34000 مسجد، لم يكن تحت إشراف الدولة منها سوى 5600 مسجد. وفي سنة 1996 أصدر زير الأوقاف أشد التعليمات عدوانية حتى الآن ومؤداها أنه: ينبغي أن يعاد إلى سيطرة الدولة 6000 مسجد في كل سنة. وبحلول سنة 1999 تباهت الوزارة بأنها استولت على 41400 مسجد من المساجد الموجودة في مصر والبالغ عددها 67000 مسجد، وهو ادعاء يظل مثيراً للجدل على نطاق واسع. وحين تسلمت الدولة المساجد الخاصة اشترطت على الأئمة أن يحصلوا على اعتماد من المعاهد الرسمية أو أن تكون لهم مؤهلات مكافئة. وعزل الذين أخفقوا في امتحان الإجازة، من منابرهم واستعيض عنهم بوعاظ عينتهم الدولة.

وكانت هذه الأوامر الجديدة موجهة بالتحديد إلى مجتمعات مثل مجتمع إمبابة، حيث استطاع المسجد الخاص (المسجد الأهلي) أن يستحوذ على خيال المسلمين. فهناك لا تزال الأنشطة المشابهة للأنظمة التي كان ينفذها الشيخ جابر، أمراً شائعاً. وفي مسجد الحصري تتولى الشبكة الوطنية (الدواء) تجنيد المصلين للقيام برحلات لمدة شهر في أرجاء البلاد بهدف نشر تفسير معتدل للإسلام. وكان المتطرفون الإسلاميون يتحكمون في كثير من المساجد الخاصة في الثمانينات وفي أوائل التسعينات، وكان الغرباء عن المجتمع المحلي لا يرحب بهم. وفي جامع الأسيوطي في إمبابة، الذي سمي باسم موطن مؤسسه،

كان أعضاء الجهاد يراقبون بعناية من يحضر الصلوات اليومية. وفي محاولة للاطلاع على الرسالة التي تؤدى هناك طلبت إلى شاب مصري أن يحضر الخطبة بعد ظهر يوم من الأيام ويبلغني عنها. ولكن لم يكد يدخل المسجد حتى اكتشف أنه غريب وعندما شرح مهمته أمر بالمغادرة. ومثلما خرج المسجد من قبضة الدولة خرج مشايخ الطرقات كذلك، وأخذوا يقودون القاعدة الشعبية للصحوة الإسلامية. والدولة تعرّف الشيخ بأنه من درس في المركز الإسلامي المتميز وهو جامعة الأزهر بالقاهرة. وعلى كل حال فللناس تعريف مختلف، إذ يستخدم معظم المصريين مصطلح شيخ استخداماً فضفاضاً. وعلى العموم فهو كلمة تخصص لمن يشجع الناس على أن يكونوا أكثر تديناً. غير أنه يستخدم أيضاً لقباً تفخيمياً لعضو رفيع المستوى في جماعة أو في دائرة.

وفي حالة الهضيبي يعد الشارع منبره الوحيد. فالدولة تحظر عليه إلقاء الخطب في مسجد، وبحكم كونه من رجال الدين الذين كونوا أنفسهم تعلم كيف يتلو القرآن بنفسه ولم يلتمس تعليماً من عالم دين في الأزهر إلاَّ في السنين الأخيرة. وقال معترفاً إذا أردت الحقيقة فأنا فخور باللقب غير أني لا أرى أنني أستحقه.

وعلى كل حال فجيرانه يحسبون أنه يستحقه. ولقد بدأت ملحمة تعيين الهضيبي شيخاً من قبل المجتمع المحلي في اليوم الذي قرّر فيه أن يغير حياته: «كنت رجلاً عادياً ولم أكن أصلي. وكنت قد ضيعت نفسي في الغفلة والتفريط بين السادسة عشرة والسادسة والعشرين. غير أني أخذت أطالع القرآن». وبدأ أيضاً يمارس العمل الخيري. ففي كل يوم، حوالى الساعة الواحدة، يجمع الهضيبي حوله الشباب على طول شارع مدرس، وهو شارع عريض جيد التعبيد يرافقهم إلى مسجد ناصر لصلاة الظهر، وإذا كان لأم مشكلة مع ابنها تتعلق بالانضباط تحدث الهضيبي بالهاتف ليسدي النصيحة. وبعيد شروعي في زيارة

إمبابة كان الرجال في الجوار يلتمسون رأي الهضيبي في مسألة هل يحرم الإسلام عليهم أن يصافحوني أم لا؟ فالسلام على امرأة من نسائهم بمثل هذه الطريقة يمثل انتهاكاً للتقاليد الدينية والاجتماعية. غير أني كنت ضيفة وكان الالتزام بتحية شكلية أمراً لا بأس به.

واجتمعنا حول منضدة الحلويات حيث يكدح الهضيبي لتحصيل قوته ببيع عصير العنب والكسكس المحلي المغطى بالقشدة. واحتج محمد وهو رجل كهل حليق يمشي مشية عرجاء، بأن التماس الجسمي مباح على أن تكون المصافحة ليست مصافحة على الإطلاق بل لمسة طفيفة من أصابع الرجل على راحة يد المرأة!!

فكّر الهضيبي لحظة وكانت عيناه السوداوان الصغيرتان تحملقان في المدى البعيد ثم أخذ يتلو بفخر واعتزاز آيات من القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾ [النساء: 43].

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم زرت دكان حلاق، وهو حجرة صغيرة خضراء على جانب أحد الأزقة، لها ستار بال يتخذ باباً. وخالد، الحلاق، معروف بحديثه الجذاب وقصاته للشعر التي تحمل طابعه الخاص المتميز. وهو يقص الشعر، لقاء ستين قرشاً قصاً قصيراً يقترب من فروة الرأس، بحيث يضمن للرجال ألاً يعودوا إليه قبل مضي عدة شهور.

وكان خالد يصف بالتفصيل ما فعله في ليلة زفافه قبل شهور قلائل. وقال أمام ثلاثة من زبائنه المفتونين بحديثه: «عندما كنا على وشك الدخول وإتمام الزواج، كان الشيء الأول الذي فعلته أن توضأت فهناك أثر يفيد أن على المرء أن يصلي ركعتين».

وأطرق خالد برهة ثم قال: «لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا لأنه لا يسمح لنا الإسلام أن نكشف للآخرين عما يدور بين الرجل وزوجته».

وألححت على خالد ليتابع سرد قصته، وأنفقت كثيراً من ساعات العصر في دكان الحلاق، على مدى بضعة أشهر، وشعرت بأنني أملك حرية طرح أسئلة شخصية عليه.

غير أنه تهرب من سرد مزيد من التفاصيل باستثناء قوله إنه أدى بعد ذلك «واجباته الإسلامية» الأخرى، وقال شارحاً: «في الإسلام تستطيع المرأة شرعاً أن تطلب الطلاق إذا رفض زوجها أن يجامعها».

ومكثنا هادئين لحظات قلائل ثم دخل الشيخ الهضيبي دكان الحلاّق وقال: «السلام عليكم» ووقف الهضيبي منتصب القامة عند مدخل الدكان وكأنه يستعد لظهوره الأول في مسرحية أو فيلم. وحملق فيّ وأنا أجلس على كرسي بني من البلاستيك يواجه كرسي الحلاق، وقد بدا ممتعضاً من تصرفي بشيء من الاستقلالية ومجيئي إلى الدكان من دون أن أطلب إليه أن يرافقني إلى هناك. ونظر إليّ ببرود شديد.

وردَّ خالد ومحمد (الذي كان يقص شعره) تحية الهضيبي بلهجة توقيرية، قائلين: «وعليكم السلام». وكان من الواضح أن الهضيبي قد عزم على أن يأخذ بزمام الحديث، وكان من المتوقع أن كل الحاضرين لن يمانعوا في ذلك.

وأخذ يشرح لماذا يزداد إقبال النساء على ارتداء الحجاب.

«النساء يرتدين الحجاب لا بسبب تهديدات أزواجهن، ولكن بسبب أمر قرآني، والناس يزدادون إقبالاً على الدين».

وسألت خالداً: «هل ترتدي زوجتك الحجاب؟».

ورد قائلاً: «أجل، وأنا على يقين أنها ترتديه حيثما ذهبت، حتى حين لا أكون معها. وأنا أعرف أن في وسعي أن أثق بها». وأومأ الهضيبي موافقاً ثم قال: «إذاً فقد أثبتت أنها مسلمة صالحة وأنك اتخذت القرار الصحيح باختيارها زوجة لك».

وفي مصر ألوف من أمثال الهضيبي يفرضون وجهة نظرهم الخاصة في الشريعة الإسلامية. وأعضاء اللجان الأهلية الذين تمت تربيتهم محلياً يعملون، مستخدمين الشارع منبراً لهم، خارجين كل الخروج عن سلطان هيئة العلماء الرسمية، وهي القيادة الدينية التي ترعاها الدولة. ويبدون بلحاهم، وجلابياتهم الرثة، في تناقض صارخ مع الوعاظ الرسميين في عمائمهم المستديرة الحمراء التي تتدلى منها شرابة حريرية سوداء، وأرديتهم البيضاء المنشاة.

ويحظى المشايخ الشعبيون بالشرعية الواسعة النطاق لسببين، أولهما أن سير حياتهم تعكس المآسي والمصاعب التي عانى منها أتباعهم، والهضيبي يحافظ على سلطانه في المجتمع المحلي بحكم كونه مفرطاً سابقاً، ولكنه خرج من الظلمات إلى النور. وثمة مشايخ آخرون يحظون بشعبية مدهشة في مصر خرجوا أيضاً من أحضان الفقر والجريمة في أسوأ أحياء البلد القذرة. وفي السنوات الأخيرة أصبح بعض مشايخ الطرقات يتمتعون بتأثير بلغ أن الدولة حظرت وعظهم في المساجد أو وضعتهم رهن الاعتقال المنزلي.

والسبب الثاني هو أن الشيخ الشعبي أصبح ترياقاً مضاداً للوعاظ الرسميين الذين وقع عليهم اختيار الدولة. وعلى مدى القرن الماضي رأى المصريون مشايخ متمرسين بالعلوم الإسلامية التقليدية في الأزهر يلتزمون بالتواطؤ مع الدولة. وعندما احتاج الرئيس عبد الناصر إلى المساندة في الحرب العربية الإسرائيلية سنة 1967 اتجه نحو الأزهر الذي أعلن أن الصراع جهاد مقدس ضد

العدو الصهيوني. وعندما واجه أنور السادات معارضة شديدة في مصالحته مع إسرائيل في أواخر السبعينات اتجه هو أيضاً إلى الأزهر لإضفاء الصفة الشرعية على أعماله. وأصدرت هذه المؤسسة الدينية التي تسيطر عليها الدولة الرأي على النحو المطلوب، معلنة أن الوقت قد حان للمصالحة مع اليهود.

وفي هذه الأيام تجرأ بعض مشايخ الأزهر التقت أفكارهم مع الصحوة الدينية على الانشقاق عن الخط الرسمي. فبينما يواصل شيخ الأزهر الحالي، الشيخ محمد سيد طنطاوي، مساندة سياسات الحكومة، يؤكد الوعاظ الذين هم دونه مرتبة استقلالهم للمرة الأولى خلال قرن من الزمان تقريباً. وقد اصطدم مشايخ الأزهر مع الدولة في طائفة من القضايا، كختان البنات، وتحديد النسل، والأعمال الأدبية الصادرة عن كتّاب علمانيين.

وأردت مقابلة أحد المتمردين في الأزهر، فطلبت إلى الهضيبي أن يقدمني إلى معلمه الشيخ إسماعيل صادق العدوي. وبعد بضعة أسابيع وافق العدوي على استقبالي على أن أظهر في حجاب كامل. وفي الساعة الخامسة، عصر يوم من آذار / مارس، غادرت شقتي وأنا أرتدي حجاباً أسود طويلاً مثبتاً بإحكام حول وجهي ويمتدّ من الأسفل إلى الخصر. وكانت العادة عندما أسافر إلى إمبابة أن أربط الحجاب ربطاً غير محكم حول رأسي قبل أن أصل إلى الحي مباشرة. ولكن لقائي بالشيخ العدوي كان يقتضي أن يكون الحجاب يغطّي الجزء الأعلى من جسمي تماماً. وقرّرت أن أثبته أمام مرآة لأتأكد أن المسألة تمت على الوجه الصحيح. وعندما رآني الشباب الذين يعملون في المبنى في غسيل السيارات وجمع القمامة أحجموا قليلاً ثم رفعوا أصابع إبهامهم علامة الظفر والفرح مقرونة بابتسامة الفرح، إذ كانوا يفترضون أنني دخلت في الإسلام أخيراً.

ودنوت من الباب الحديدي، باب الأزهر الذي يبلغ عمره عدة قرون، بعصبية. ولم يسبق لي أبداً أن لقيت شخصية دينية رفيعة المقام في مصر، وكان

يتولاني القلق حول قواعد المجاملة المطلوبة من أجل مثل هذا اللقاء. كان الهضيبي ينتظرني في جلابيته المعهودة. وطلب أن أخلع حذائي وأحمله داخل المسجد في حزمة واحدة. وقال يشرح لي إنه لا يجوز أن يسقط القذر من الحذاء على السجاد الذي يغطي أرض المسجد.

وفي اللحظة التي رأيت فيها الشيخ العدوي شعرت بالارتياح. كان رجلاً ضخماً في أواخر الستينات ذا لحية شهباء طويلة، وكان يقعد محني الظهر في كرسي واسع وشرابة عمامته تتدلى بالقرب من عينيه الداكنتين اللطيفتين، وعندما نهض ببطء ليحييني لم يصافحني غير أنه حدق في عيني، خلافاً لكثير من أهل الورع من المسلمين الذين يعتقدون أنه يحرم النظر المباشر إلى امرأة لا تربط بين الناظر وبينها رابطة دم أو زواج.

وقال الهضيبي: «هذه الآنسة عبده» وفي صوته لهجة توقيرية لم ألاحظها من قبل. وقال الشيخ العدوي يسأل: «عبده؟ ولكن لماذا لا تكونين مسلمة؟».

وقلت أشرح له: «على الرغم من أن عبده اسم إسلامي شائع فإن أجدادي مسيحيون موارنة من لبنان». وكأنه اعتذار عما بدا عيباً من عيوب النسب، وذكرت أنني درست العربية الفصحى وبذلت الكثير من الجهد عن طريق الدورات لأتعلم قراءة القرآن.

ودعاني الشيخ العدوي للبقاء في المسجد لكي أستمع إلى خطبته ودرسه، أي الدرس الديني. وفي نهاية الأمسية فهمت لماذا كانت له شعبية إلى هذا الحد. لقد حول العدوي المسجد إلى خشبة مسرح، مثلما يفعل فنان في الأداء في نيويورك، وحول نفسه من رجل دين مقهور، متأمل، إلى كوميدي أو عريف حفل يتقن فن الحديث. فقد وقف يتحدث أمام مستمعين معظمهم من الذكور، يبلغون نحو المائتين، ويجيب إجابات موفقة عن أسئلة في موضوعات تتدرّج من مسألة تحريم استعمال كريم الوجه، إلى مسألة عقوق الآباء وعقوق الأبناء.

وقال شاب يعترف للجمهور والشيخ: «صرخت في وجه زوجتي، فبكت، وقلت لها: إذا مضيت في البكاء فسأطلقك». ورد العدوي وقد بدا على وجهه اشمئزاز مبالغ فيه، قائلاً: «هذا مثال على الكيفية التي يمكن للرجال بها أن يكونوا حمقى أو أغبياء؟ لقد كان ينبغي لك أن تواسيها وتسألها ما الذي كان يضيرها. والقرآن يؤكد أن الله جعل بين الرجل والمرأة مودة ورحمة. ولا يمكن لرجل مثلك أن يكون زوجاً أبداً، والأفضل لك أن تذهب وتشتغل في تربية الأرانب بدلاً من ذلك».

وقال لي الشيخ العدوي: «إن مفتاح التأثير على الناس وجعلهم مسلمين أفضل هو الحديث إليهم بلغة يستطيعون فهمها. وأنا أحاول أن أصل إلى الفرد المتوسط بطريقة بسيطة. وهذا ما يوافق حديث النبي ﷺ. والذين لا يتمتعون بالفطرة السليمة لا يمكنهم إلاَّ أن يتجاوبوا بطريقة إيجابية. وهذه هي على وجه الدقة الكيفية التي أثرت بها على الشيخ الهضيبي».

كان من الواضح أن هالة الزعامة والخطابة البارعة عند الشيخ العدوي هما السبب في جانب من شعبيته. ولكن في قلوب كثير من المصريين كانت تصريحاته الجريئة التي تتحدى سياسة الدولة هي التي تميزه عن أقرانه في هيئة العلماء الرسمية. وكان الشيخ العدوي قد دعا الحكومة المصرية إلى عدم قبول 1,2 مليار دولار مساعدة من الولايات المتحدة. وهو زعيم زعماء حملة الجهاد المتنامية الداعية لقطع الحبل السري الذي يربط مصر بالغرب، ليزيدها قرباً من الفلك الإسلامي. والعدوي يعارض عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية، وهي قضية أخرى تؤيدها الحكومة المصرية. وبينما كان مبارك يباهي بلقاءاته المتواترة مع الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز في القصر الرئاسي في ضاحية مصر الجديدة، كان العدوي يطلق العنان لكلامه البليغ الحاد ضد اليهود من على منبره في الأزهر.

وذات يوم جمعة في ربيع سنة 1994 احتشد الألوف من أتباع الشيخ

العدوي في الجامع الأزهر ليعلنوا احتجاجهم على الولايات المتحدة وإسرائيل، غير أن الإسلاميين أمروا بوقف الاحتجاج إذ كان يواجههم جيش من شرطة الأمن المسلحين بالهراوات والبنادق الآلية وأقنعة الغاز المسيل للدموع. وبعد أيام قلائل عرض الشيخ الهضيبي بفخر صورة في الصفحة الأولى في جريدة المعارضة الإسلامية، الشعب، تصور آلاف المصلين مجتمعين في المسجد. وحين جلست بالقرب من المنصة التي يبيع عليها الحلوى أشار إلى وجهه الذي ظهر في وسط الصورة. وقلت له إنني كنت واقفة إلى جانب قوات الأمن في ذلك الوقت وتساءلت هل كان المحتجون يخشون من احتمال أن تقتلهم الشرطة؟!

قال الهضيبي: «كنا خائفين لأننا كنا نعرف ما يمكن أن يحدث، ولكن كل امرئ في هذه البلاد يشعر بالاشمئزاز حقاً، وليس لدينا أي أمل. لقد جاء اليوم الذي لا نأبه فيه للشرطة: لقد طلّقت الحياة. وأنا لم أبذل بعد كل ما أملك في سبيل الله لأنني أعول أطفالاً».

إن طبيعة ونطاق الثورة التي تعتمل بهدوء في شوارع مصر الخضراء قد غابت حتى الآن عن العيون الثاقبة لجهاز الأمن المنتشر في كل مكان. وبينما كانت الدولة العلمانية مبهورة بالعناوين الرئيسية المثيرة، والصرخات التحذيرية الضعيفة التي تطلقها وسائل الإعلام الغربية حول حركة التمرد الإسلامي، غاب عنها أن تهتم بالتهديد الأشد خطراً على وجودها والذي أخذ يستشري في أوساط القاعدة الشعبية المتدينة. وكأي نظام يتأرجح على شفا الإفلاس تولى نظام الحكم بنفسه زرع بذور دماره. ولنأخذ حالة حسن كاراتيه سلطان، المتعاطف السابق مع الجماعة الإسلامية بوصفه مستند القاهرة في الصراع ضد تهديد المتطرفين، فقد عرضت السلطات أمام جماهير الجامعة شاباً منتفخ الأوداج يدعى «سلطان» باعتباره تجسيداً للمتطرف التائب، ومثالاً مهيمناً لانحراف الشباب المتحمس. وظهر سلطان

شاباً أنيقاً حليق اللحية، ذا عينين داكنتين مستطيلتين، وهو أشبه بموديل محلات الأزياء، وحين يمشي يتمايل بوركيه ويستعرض عضلاته. وقد ظل سنوات طويلة من حملة الحزام الأسود في الكاراتيه، مما حدا بجيرانه أن يطلقوا عليه لقب «حسن كاراتيه».

جاء كاراتيه إلى إمبابة غلاماً من أسيوط. ووجد أبوه شقة رخيصة لأمه وأبنائه الستة في عزبة المفتي، وهو حي منازله من الطين وطرقاته غير مرصوفة. وعندما كان في الحادية عشرة جندته جماعات في الجوار ليحضر الصلوات في مسجد محلي. وسرعان ما جنحت به المناقشات الدينية إلى السياسة. وعندما عصفت المشكلات بالمنطقة المجاورة له في كانون الأول / ديسمبر 1992. ألقي القبض على حسن في عملية اكتساح قوات الأمن، وقضى أربعة أشهر في السجن قبل عودته إلى عزبة المفتي.

القصة المسرودة حوله تجسد الميلودراما البسيطة التي يقف فيها الخير في مقابل الشر. لكن هذه الميلودراما ما لبثت أن كرست بعد سنوات لأنشطة العنف التي تستهدف الإطاحة بالدولة. ولقد قيل إن كاراتيه صلح حاله في السجن وتحول إلى زعيم في مجتمعه المحلي محب للسلام. وهذه هي الطريقة التي قدم بها حسن من قبل سعد الدين إبراهيم الباحث المصري المرموق في علم الاجتماع. الموصوف بأنه واحد من كبار خبراء مصر في الحركة الإسلامية المتطرفة. وكثيراً ما كان إبراهيم يأتي بكاراتيه معه إلى اجتماعات الجامعة ويقدمه على أنه «أمير سابق في إمبابة». ووصف المرة تلو المرة رحلة الشاب من جنون التطرف إلى كشافة إمبابة.

ولكن تبين بعد الفحص أن قصة إبراهيم كانت على النحو التالي تماماً: حكاية أخرى لفقتها الحكومة بحيث إذا تكررت بما فيه الكفاية قامت مقام الحقيقة في مصر. وكان كاراتيه «الجديد» في الحقيقة، أخطر على النظام من نصير الجماعة القديم المزعوم.

ولقد قابلت كاراتيه في شقة طليت بالدهان حديثاً، في عزبة المفتي، وروى لي كيف انشق على الإسلاميين المقاتلين بسبب أساليبهم العنيفة، وهرب إلى الخليج قبل شهور قلائل من الهجوم على إمبابة في كانون الأول / ديسمبر 1992، وأنه لم يعد إلاَّ مؤخراً ليتزوج حبيبة طفولته، عندما وقع في أيدي قوات الأمن. وكان لاعب الكاراتيه الأول يتحدث بحماسة عن الكيفية التي كان يدعو بها إلى تطبيق الشريعة الإسلامية الدقيقة الصارمة، في المساجد وفي مراكز المجتمع المحلي، على أمل أن يجعل الناس أكثر تديناً. ولقد أصبح الآن قائداً في منظمة «الدواء»، وهي جماعة مثيرة للقلاقل تتغاضى عنها الدولة. وكانت أفعاله الحميدة قد أكسبته في الآونة الأخيرة لقب «الشيخ سلطان».

سألته هل كان هذا هو نوع النشاط الذي حمل الدولة على سحق إمبابة؟ وردَّ قائلاً: «كلا، لقد أغارت الشرطة على إمبابة لتأخذ الشيخ جابر. وما نفعله الآن هو تعليم الناس الشريعة، وكيف يتبعون طريق الإسلام الصحيح».

وقادني كاراتيه خلال متاهة من الأزقة الضيقة إلى محطة للحافلات الصغيرة التي تنقل الركاب جيئة وذهاباً، عبر الطرق الموحلة، إلى الطرقات الرئيسية، حيث تنتظر الحافلات الكبيرة وسيارات الأجرة. ودفع عني الأجرة بأسلوب مهذب، حتى عندما أصررت على الدفع بنفسي. ثم قال وقد بدا عليه الارتباك والاستياء: «ولكنك لم تسأليني عن التعذيب»!!

قلت أسأله: «أي تعذيب؟».

«التعذيب في السجن. هل تدركين ماذا يعني أن يكون المرء في السجن في هذه البلاد؟ أولاً: قام المستجوبون باقتلاع أظافر أصابعي، وعندما ظللت أقول لهم إنني لا أعرف الأشياء التي يسألونني عنها حول الجماعة ضربوني، ثم وصلوا الأسلاك الكهربائية بجسدي، وعرَّضوني للصدمات الكهربائية».

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، وفي داخل شقتي، وبعيداً بعداً شاسعاً

عن صدمة إمبابة، استمعت إلى تسجيل لسعد الدين إبراهيم يصور حسن «كاراتيه» سلطان، المقاتل التائب.

«كان حسن يقاتل قوات الحكومة، وكان يفخر بأنه استطاع ومعه 600 مقاتل من المناطق المجاورة، أن يمنع قوة من الشرطة، تبلغ اثني عشر ألفاً، من دخول إمبابة». هذا ما كان إبراهيم يقوله لجمهور في الجامعة الأمريكية في القاهرة، وقال: «ولكن حاله صلح في السجن، حيث عومل معاملة حسنة، وهو الآن يبحث عن حياة أفضل».

لقد استمعت إلى الشريط المرة تلو الأخرى، وأفكر في كاراتيه الذي يقبع في شقته المطلية حديثاً، يلتمس ملاذاً من الدولة التي عذبت جسده الفاني، ويتلو ما تيسر له من القرآن.

سألت منتصر الزيات، وهو محام متحدث باسم الجماعة، عن رأيه في فكرة «المقاتلين التائبين»، وسألته هل سيتغير المتطرفون الإسلاميون المحكومون الذين كثيراً ما يصورون على شاشة التلفزيون وهم يصرخون «الله أكبر» من وراء قضبان زنازينهم إذا ما أرسلوا إلى مركز إعادة التأهيل بدلاً من إرسالهم إلى غرفة الإعدام.

وأجاب الزيات قائلاً: ««المقاتلون التائبون» مصطلح ينطوي على التناقض. والسبب الكامن وراء كونهم مقاتلين هو أنهم عقائديون، فهم يؤدون مهمة. وفي أذهانهم أنهم ليس لديهم ما يندمون عليه. وفكرة المقاتل التائب هي مجرد دعاية من قبل الدولة. وإذا ادعى أحد أنه مقاتل تائب فهذا يعني أنه لم يكن قط مقاتلاً في المقام الأول».

وفي اليوم التالي سألت الشيخ الهضيبي عن الفرق بين إمبابة اليوم وإمبابة أيام الشيخ جابر وأمرائه، قائلة: «هل نجح الاجتياح في إخماد الشعلة الإسلامية؟ وهل قلَّ النساء اللواتي يرتدين الحجاب؟ وهل ازداد عدد راقصات هزّ البطن في حفلات الزفاف؟».

فأجاب مراوغاً: «هناك الآن المزيد من شرطة الأمن».

وقلت بإصرار: «ولكن ما من شك في أن الحياة قد أصبحت مختلفة».

«لو كان ذلك صحيحاً لما كنت جالساً هنا أشرب الشاي، بل كنت في السجن».

وغادرت إمبابة عصر ذلك اليوم، ولم أعد إليها إلاَّ بعد أربع سنوات. وظللت في القاهرة، غير أنني لم أستطع أبداً أن أجد الشجاعة الكافية لعبور الجسر المتواضع الذي يفصل بيتي الحالي في الزمالك عن إمبابة التي تعيش في عصر سابق على هذا العصر. لقد خلفت الشهور التي قضيتها هناك انطباعاً عميقاً في نفسي. فقد كانت إمبابة التي عرفتها تختلف عن أي حي آخر في قلب القاهرة. على أن مناطق مثل شبرا وبولاق كانت مماثلة تماماً لإمبابة التي أضر بها الفقر. وكانت دروبهما التي تغطيها طبقة من الوحل والروث مماثلة لدروب إمبابة تماماً في القذارة والرائحة. وكانت الأغنام المربوطة إلى عصي وأوتاد على طول الشوارع متماثلة في فوضاها وسوء تغذيتها. وكانت الحمير المتنافسة على بوصات قلائل من المكان في أماكن الزحام التي لا يجوز التوقف فيها، تتعرض للضرب من قبل أصحابها بنفس القسوة. غير أن الخراب والكفاح في إمبابة أوجدا دينامية غير مألوفة. وعندما تدخل إمبابة تحس بالاختلاف وبالطاقة التي تكمن في ثنايا المجتمع الحبيس. وكثيراً ما يقول المصريون إن إمبابة مجموعة من التطرفات؛ فالمخدرات والجريمة والعنف الديني تبلغ مبلغاً لا تبلغه في أي مكان آخر.

فلماذا إذا كانت إمبابة مختلفة كل هذا الاختلاف؟ كان هذا هو السؤال الذي كثيراً ما كان يطرح. على أن الجواب الأكثر إقناعاً الذي تلقيته جاء من جمال قطب، وهو شيخ من الأزهر نشأ في هذا الحي إذ قال: «لقد جاء كثير من الناس في إمبابة من القرى، ولا سيما من الصعيد، جاؤوا ومعهم عادات وطقوس ذات صفة ثقافية، لا دينية. ومع ذلك فهم يعتقدون أن هذه العادات

إسلامية بطريقة أو بأخرى ومن هنا جاء سوء الفهم. ولا يستطيع قاطن في إمبابة أن ينسى أبداً قريته، فهو يعيد إنشاءها في ذهنه ويترسمها في تصرفاته وسلوكه لقد تركت المساجد في إمبابة لأن الناس كانوا لا يتوقفون عن طلب خدمات شخصية مني، على نحو ما يحدث في قراهم تماماً».

وعندما عدت إلى الحي في ربيع سنة 1998 كانت أشياء كثيرة قد تغيرت في مختلف أنحاء مصر. كانت الحكومة قد أعلنت انتصارها على المقاتلين، وهو ادعاء لم يزعجه، إلى حد بعيد، هجوم على السواح الغربيين في الأقصر في خريف سنة 1997 عندما نفذ المقاتلون الخارجون على الجماعة أشد هجماتهم عنفاً على السواح في تاريخ حملتهم ضد الدولة التي دامت عشرين سنة.

وكان المقاتلون قد حاولوا أيضاً اغتيال الرئيس مبارك أثناء زيارته لإثيوبيا سنة 1995. وانقسمت الجماعة زمراً متناحرة مما حمل منتصر الزيات المحامي والناطق باسمها، والذي كان يمثلها منذ نشوئها تقريباً، على أن يعلن على الملأ أنه تخلى عن الكفاح. وهنأ الغرب الرئيس مبارك بانتصاره المادي والسياسي على تهديد المتطرفين. وعزا العالم والدولة المصرية نجاحه إلى سياسة جديدة في سنة 1994 ما عادت تميز بين الإسلاميين المتطرفين والمعتدلين. وكانت النتيجة الاعتقال والسجن للعشرات من أنصار اللاعنف المعتدلين من الإسلاميين في النقابات والجامعات.

كما سقط أيضاً كثير من المشايخ المتحررين ضحية لهذه الاستراتيجية المبنية على العقوبة الجماعية. وحظرت عليهم المنابر وانكفؤوا إلى العمل السري، حيث كانوا يعقدون الاجتماعات السرية مع أتباعهم من ذوي الإيمان الراسخ، أما على السطح فكان يبدو أن هناك جموداً في نشاط المقاتلين ومأزقاً عند المعتدلين من الإسلاميين. ولكن كان المجتمع قد أقدم على الاختيار بعد الأيام الساخنة في مطلع التسعينات. ذلك أن الحركة الإسلامية المتطرفة التي كانت قد تركت بصمتها على التاريخ المصري حل محلها حركة اجتماعية بين

الجماهير اختارت أن تطبق الدين في كل جانب من جوانب حياتها. عدت إلى إمبابة بعد أربع سنوات من البعد عنها لألاحظ هذا التحول الديني. وكنت أدرك أن إمبابة أرض المتطرفين والتطرف كفيلة بأن تفرض صورتها وتضعها بقوة في بؤرة اهتمام الجميع. وسرعان ما عدت إلى النقطة التي تركتها فيّ الزيارة الماضية. ووقع نظري على عربة لبيع السجق على أحد جوانب ساحة المنيرة. كانت علب الكولا والبندورة الناضجة تعرض في الزجاج الأمامي للكشك، بجوار سخان لإعداد الشطائر (بالقرب من السندوتشات). وكان السجق الأسمر معلقاً بالخيطان على كل جانب، مشكلاً إطاراً للكشك، وكان ينتصب إلى يمين الكشك صندوق ثلج كبير تخزن فيه المشروبات الباردة، وكانت هناك راية معلقة أمام الكشك كتب عليها: الله أكبر، بطولة حسن كاراتيه. كان ثمة رايات تحمل آيات من القرآن، تبلغ ذروتها في عبارة: لا إله إلاّ الله.

كان كاراتيه سلطان قد كبر خلال أربع سنوات، متحولاً من مقاتل تائب أنموذجي في صحف مصر المغمورة الناطقة بالإنكليزية إلى نجم من نجوم وسائل الإعلام العالمية. وكان قد ظهر في كل صحيفة أجنبية رئيسية تقريباً، وكان كشك السندوتش الذي يديره يشكل دليلاً مادياً على إعادة تأهيله الشخصي. وبحلول سنة 1998 ادعى سعد الدين إبراهيم أنه أصلح 41 مقاتلاً مثل كاراتيه أرادوا أن «يعودوا إلى المجتمع»، وكانت هيئة العاملين الواسعة عند إبراهيم تجمع أموالاً أجنبية من أجل برنامجه الذي يطبقه من خلال مركز ابن خلدون التابع له، وهو بناء من القرميد المزخرف في تلال المقطم المطلة على القاهرة، وافتتح مكتباً تابعاً له في إمبابة. ولكن عندما وصل الصحفيون الأجانب إلى العاصمة وطلبوا مقابلات مع عينة من المقاتلين الذين تابوا على يد سعد الدين إبراهيم، كان المستند الوحيد الجاهز للعرض هو كاراتيه. فماذا عن الأربعين الآخرين؟ لقد ظلوا في عالم الغيب! وكان من شأن كاراتيه أن يقدم المقابلات بروح من الشعور بالواجب في كشك السندوتش ويأخذ مائة دولار

وهي الأجرة التي كان يفرضها بحكم كونه شخصية لامعة عالمية. وتمضي القصة في كل مرة من خلال وسائل الإعلام الأجنبية فتطحن وتخرج من جديد ثم تخرج مرة أخرى إلى القراء وكأنها مادة جديدة.

وكان كاراتيه قد أصبح لديه ما يكفي من الثروة. حتى إنه ما عاد يعمل في كشك السندوتش، فقد تولى صبيانه بيع السجق لحسابه لقاء نحو عشرة قروش للقطعة. وعندما زرته عصر ذلك اليوم أخبرني بائع صغير أن كاراتيه في الطريق وانتظرت وكررت سؤالي على مدى بضع ساعات غير أنه لم يصل أبداً فأمسكت عن البحث.

وكانت حياة حسن كاراتيه الجديدة بحكم كونه صاحب مشروع بدوام جزئي أو ذيلاً من ذيول وسائل الإعلام، أنموذجاً للحياة في إمبابة في عصر ما بعد المقاتلين. وبدا أن الحي قد انسحب إلى داخله وأخلد إلى حياة دنيوية مادية. كان النشاط في الشوارع يبدو إيقاعياً مملاً، وكانت الحركة السريعة والصخب يتركزان حول أكشاك الخضار وأسواق اللحم. أمّا الأزقة التي تكتنف شارع الأقصر، إقطاعية المقاتلين في مطلع التسعينات، فكانت غاصة بالأطفال الذين يلعبون بكرة القدم، ويتراكضون في ملاعبهم المليئة بالنفايات. أمّا حفلات الزفاف المليودرامية التي كانت فيما مضى تقام في الشوارع ليمتع الناس أنظارهم بها ثم يفسدها المقاتلون، فقد أصبحت تقام في النوادي الخاصة، والشوارع التي خربتها مياه المجاري فيما مضى، أصبحت مرصوفة.

وقال سيد مرسي عباس، مالك مخزن لقطع التبديل، يسألني وأنا أمشي على طول شارع البوهي ـ الذي كان ذات مرة قلب المنطقة التي تنطلق منها سيطرة المقاتلين: «لماذا يظن الغرب بإمبابة مثل هذه الظنون المريعة؟». قلت وأنا أحاول أن أشرح له: «الغرب لا يعرف إمبابة، فالشيء الوحيد الذي يعرفه الناس في الخارج عن إمبابة هو أنها كانت ذات مرة موطناً للمقاتلين، وهكذا

ترى أنها ليست إمبابة نفسها التي كانت لها سمعة سيئة، بل بعض الناس الذين كانوا يعيشون هنا».

وتناهى حديثنا إلى سمع جار عباس، وهو خياط كان يخيط على منضدة أعدها في الحارة المجاورة فقاطع حديثي قائلاً:

«لقد بادر الغرب إلى شوارعنا لأن الشرطة عندما جاءت لتعتقل الشيخ جابر لم تستطع أن تقود سياراتها عبر مجاري القاذورات والطرق غير المعبدة، وكانوا قد تكلموا عن تحسين المنطقة زمناً طويلاً. ولكن لم ينفذوا ذلك إلاَّ بعد القضاء على جابر».

وإذا كان جواب الغرب على الشيخ جابر هو تعبيد الشوارع فقد كان رد فعل الدولة هو إغلاق المساجد، ولاحظت أن المساجد كانت مقفلة معظم النهار باستثناء فتحها أثناء وقت الصلاة بأوامر من الدولة، تجنباً لتشجيع الاجتماعات التي تهدف إلى تقويض سلطانها. وكان مسجد الأسيوطي، قاعدة الجهاد حيث حاولت منذ أربع سنوات مضت أن أتصل بالناس ولم أفلح في ذلك آنذاك، يمر بمرحلة تحول. وعدت آملة هذه المرة أن أكون أوفر حظاً بالحديث إلى الشيخ أو إلى المصلين أنفسهم. ولقيت رجلاً هناك عرف نفسه بأنه الشيخ محمود، كان ضئيل الجسد ذا لحية رقيقة وكان يعمل في بقالية صغيرة خلف المسجد وكان مفرطاً في التهذيب في أسلوب مجاملته إلى حدٍّ أدركت معه أنه يقصد أنه لن يتكلم أبداً. قال: «في يوم الجمعة سوف تعين الدولة في المسجد إماماً من عندها، إنه جزء من البرنامج الجديد للتخلص من أناس مثلي». قلت أسأله: «ومن تكون أنت بالضبط؟، هل كنت (إماماً) هنا لسنوات طويلة؟». قال فجأة قبل أن يندفع متجهاً نحو الشمال، مختفياً وراء أكوام كبيرة من النفايات التي كانت تحجبه عن نظري: «لقد بقيت هنا مدة تصل إلى حوالي ثلاث سنوات، أي ما يكفي عندهم ليقرروا استبدالي. وهذا كل ما أستطيع أن أقوله».

كانت الذراع الطويلة للحكومة المصرية توشك أن تنهي الحياة الخاصة لمسجد الأسيوطي بإدخاله تحت سيطرة الدولة مثلما فعلت بالكثير من أماكن العبادة الأخرى غير الرسمية. وقلت في نفسي إن هذه نهاية ملائمة لهذا المكان المقدس في إمبابة الشعبية، بكل ما ينطوي عليه من تفاصيل قصة عكست صورة التاريخ الاجتماعي الحديث لهذا الحي ولمصر ذاتها.

كان هذا المسجد، الذي بناه محمد الأسيوطي، وهو من الأتباع المحليين لإحدى الطرق الصوفية الإسلامية في حرب 1967 مع إسرائيل، قد ظل على مدى سنين يوفر للجوار مكاناً للعبادة ويعود بالشرف على المحسن الذي أنشأه. وعندما مات محمد في أواخر الثمانينات، ترك العائلة لولد من أولاده قوي الإرادة. وكان شعراوي الأسيوطي قارئاً شرهاً في المدرسة الابتدائية التي كان الأول فيها. وفي المدرسة الثانوية شرع في قراءة كتابات سيد قطب. وحين بلغ السابعة عشرة كان قد أصبح عضواً ناشطاً في منظمة الجهاد. واعتقل شعراوي ذات مرة في مطلع التسعينيات، وحسبت الشرطة، خطأً، أنه كان متورطاً في إحراق محل للڤيديو وهو من الأهداف المفضلة عند المقاتلين. وعندما أطلق سراحه بعد ثلاثة عشر يوماً حوّل مواهبه وكراهيته نحو الدولة العلمانية. وتولى أمر جامع الأسيوطي على أثر وفاة والده وحوّله إلى قاعدة للمقاتلين، كما قام بتقسيم المسجد فأفرد مساحة خاصة من أجل مصلين معينين.

وقد أدى الفصل في المسجد إلى انقسام في المنزل أيضاً. وذلك أن أخا شعراوي، حمدي وهو علماني قح كان يستخدم المسجد ليعلم الأطفال الفقراء القراءة فطرد شعراوي أخاه حمدي من المبنى ليفسح المجال لأقرانه من المتطرفين. وفي منزل الأسرة أجبر أمه وثلاثاً من أخواته على الالتزام بتعريفه لأسلوب الحياة الإسلامية الصحيح، وحطم تلفزيون العائلة الذي يعد في نظره مصدراً للانحلال الغربي، وأمر أخواته أن يرتدين الحجاب. مضى على هذه الطريقة حتى الغارة على إمبابة وأُلقي القبض على شعراوي قبل الشيخ جابر بيوم واحد وظل في السجن.

ولكن سرعان ما أصبحت القيم الدينية التي فرضها بالقوة على أسرته، باستثناء حمدي، طبيعة ثانية لها. فالتحقت أخواته بالحركة المقاتلة، وبناء على تعليمات قادة «الجهاد» اتخذت أسماء جديدة بالاستناد إلى شخصيات في القرآن. وعندما قررت إحدى الأخوات، وهي دولت أن تتزوج تقدم منها خاطبان. كان الأول يحمل درجة جامعية، مما يتيح لها طريقاً للخروج من الحي المغضوب عليه في إمبابة، غير أنه لا يعرف إلاّ القليل عن الإسلام ولم يكن يستطيع أن يتلو القرآن. وكان الخاطب الآخر فقيراً، لم يحصل أي تعليم جامعي، غير أنه على معرفة حسنة بالقرآن «الكريم». واختارت دولت الأخير، مضحية بالفرصة الوحيدة التي ربما أتيحت لها لتخرج من الفقر.

وحين استمعت إلى حمدي يسرد هذه القصة تبين أن ملحمة أسرة الأسيوطي كانت، من وجوه كثيرة، تمثل قصة أحياء إمبابة المهملة، والمدينة والبلد بأكملها. ومثل عشرات الألوف من الآخرين، حمل الأب المؤسس معه إلى أحياء القاهرة الشعبية التعلق العميق بالقيم الدينية والأعراف التقليدية المشتركة عند كثير من الناس في الصعيد. وعاد إنشاء المسجد على هذه الأسرة بقدر من المكانة الاجتماعية لتقواها وكرمها، كما زود شعراوي فيما بعد بالقاعدة التي كان يحتاجها لنشر رسالة الجهاد.

وكان أفراد الأسرة في هذه الأثناء يقعون تحت سيطرة المقاتلين يوماً بعد يوم، ويديرون ظهرهم للخيارات المادية القليلة المتوافرة. وفي النهاية قطعوا علاقاتهم بحمدي العلماني المتمرد الوحيد. وحتى عندما تم اعتقال شعراوي وتم الاستيلاء فيما بعد على المسجد من قبل الدولة حافظ الأفراد الباقون من أسرة الأسيوطي على ولاءاتهم للقضية الإسلامية.

وقال حمدي الأسيوطي، ونحن جالسان في مكتبه المظلم المنخفض السقف في غياهب أحد أزقة إمبابة الكثيرة: «منذ بضع سنوات شعرت بأن ثمة

خطأ في كل أنحاء مصر، وشعرت بوجود هذه المشكلة في كل بيت ومنزل. لأن أربعين بالمئة من العائلات كان فيها أصوليون. وتأثير ذلك لا يزال موجوداً حتى اليوم. فالنساء يرتدين الحجاب والنقاب الذي يغطي كل الوجه سوى العينين. والناس يتزوجون تبعاً لنفس الطقوس التي كان المقاتلون يروجونها في يوم من الأيام. وحياة كل فرد محكومة بالدين».

وتختلف تعاليم الدين، التي تزداد تحكماً في كل جانب من جوانب الحياة اليومية باختلاف الداعية الذي يعرضها. ومثلما كانت إمبابة مختبراً لتحول مصر الديني كانت أيضاً أنموذجاً مصغراً للمدى الواسع للتفسير الديني الذي تطور على مدى الأيام غير مقيد بالمذهب الرسمي. وكان الانتقال من مسجد إلى مسجد في طول إمبابة وعرضها يعني أن يتلقى المرء آراء مختلفة تتعلق بطقوس الزواج والحجاب، والطلاق والواجبات العامة للحفاظ على إيمان المسلم.

وتولى الشيخ محمود أبو عزام الذي يلقي مواعظه في مركز الجمعية الشرعية، بيان أحكام الزواج في الإسلام، بدءاً من الخطبة وانتهاء بالزواج نفسه. وكان الشيخ عزام شخصية مثيرة، ذا لحية غير منتظمة وشعر أجعد، يُدير محلاً لبيع المفروشات في نهاية الشارع المؤدي إلى المسجد. وكان يجلس عادة على منصبة في نهاية المحل المكتظ بالزبائن والبضاعة، ليتلو آيات من القرآن «الكريم». ويشرح الشيخ أحكام الزواج فيقول: «يجب على الرجل أن يرى المرأة، وهي ترتدي خماراً (وهو حجاب يمتد إلى الخصر)، في حضور أسرتها أثناء الخطبة، فإذا أرضاه ذلك سأل الله أن يعينه على اتخاذ قراره، وإذا شعر أنه في حاجة إلى مزيد من التفاصيل عن المرأة، مثل صفاتها المميزة، ولون شعرها، ورائحتها، فإن له الحق في أن يطلب من أمها أو أختها أن تجيب عن أسئلته». وقلت للشيخ عزام: إنني سمعت عن كثير من طقوس

الخطبة، ولكني لم أسمع قط بالطقوس التي وصفها، ولم يعرفها أيضاً قراء القرآن والحديث. وأشرت كذلك، إلى أن هذا خليق أن يفاجىء علماء الأزهر، مستقر الإسلام الرسمي على مدى قرون، ولكن الشيخ عزام ما كان ليأبه لذلك. وقال، قبل أن يعود إلى مصحفه: «هذا أمر شائع، لا في إمبابة فحسب، بل في كل أنحاء مصر»!!